الأستاذ /عبد السلام صحراوي

مقياس : مدخل إلى الأدب المقارن.

السنة الثانية ليسانس أدب عربي.

تخصص: دراسات أدبية.

المجموعة 02.

محاضرة رقم: 07.

ميدان ومجالات البحث في الأدب المقارن

لقد سبقت الإشارة إلى أنّ موضوع الأدب المقارن، يقوم على تبادل الاستعارات الأدبية بين الآداب القومية المختلفة لغاتها. و ذلك ا لتبادل يكون غالبًا أوسع ممّا تدلّ عليه كلمة تبادل و تأثير وتأثّر.. والاستعارة تكون على مستوى الأجناس الأدبية أو الصور والموضوعات والأساطير والنماذج البشرية والمواقف الأدبية والأشخاص وكذا الأفكار والتيارات و المذاهب..وغيرها.

وفي الدراسات الأدبية المقارنة غالبًا ما ينظر الدارسون إلى وسائل انتقال وعبور هذه الاستعارات الأدبية من أدب لغة إلى أدب لغة أخرى ومن بلدٍ إلى بلد، أو أنَّ الدارس في حالات أخرى ينظر إلى المسائل الأدبية والفكرية والفنية نفسها التي تمّ تبادلها أو تمّتْ استعارتها وانتقالها من أدبٍ إلى آخر ومن لغة إلى لغة أخرى.. ثمَّ ما طرأ عليها من تغيّر أو من نقصٍ وزيادة حين انتقلتْ من اللغة الأصلية التي وُجدتْ فيها إلى لغة أخرى وأدبٍ آخر عن طريق الاستعارة والتبادل والتأثير والتأثّر غالبًا.. وفي هذه الحالة تتمّ دراسة هذه المسائل في حدّ ذاتها متمثّلة في الموضوعات والأجناس الأدبية، وكذا المصادر الأدبية والتيارات وغيرها، التي تكون هي نفسها محلّ البحث والدراسة المقارنة..ومن هذه الزاوية يتبيّن لنا تنوّع فروع ومجالات الأدب المقارن والدراسات المقارنة التي تتنوّع وتتعدّد بتنوّع وتعدّد هذه الفروع ومجالات الأدب المقارن التي سيأتي التفصيل في جوانب منها لاحقًا..

أولًا: عوامل انتقال الأدب من لغة إلى لغة :

يتمّ انتقال الأدب من لغة إلى لغة (خارج الترجمة) عن طريق عاملين اثنين هما:

1 -**الكتبُ والمؤلفات** – الآثار الأدبية والفنية –: ولا يخفى على أحد ما للكتب من تأثير كبير في خلق وإيجاد وإثبات الصلات الأدبية بين الآداب القومية في مختلف اللغات ، فهي التي تقوم كجسر من جسور التبادل و المثاقفة بين البلدان والثقافات والآداب القومية ، وتثبت من خلال ذلك تأثير وعلاقة مؤلف ما ببلدٍ من البلدان أو بإنتاج أدبيٍّ في بلدٍ أو في لغة ما. ويقوم دور الباحث في الأدب المقارن في هذه الحالة بدراسة ومحاولة إثبات الصلة بين الوسط المؤثر والوسط المتأثّر. وعادةً ما يلجأ الدارسون في هذا الأمر وفي هذه الحالة إلى الاستعانة بما يصرّح به المؤلف من تصريحات واعترافات بتأثُّره بثقافة بلد آخر أو مؤلِّف أو كاتب من لغةٍ أخرى. وقد يكون الكاتب نفسه (المؤلِّف) قد كتب بلغة بلد آخر متأثِّرًا بها وبأدبها وحضارتها، ممّا يدلُّ دلالة واضحة بتأثّره بأدب اللغة التي كتب بها.. ويدخل في هذا المجال كمثال على ذلك : كتّاب الفرس وشعرائهم الذين كانوا من ذوي اللسانين العربي والفارسي، وأغلبهم كتب باللغتين إثباتًا لتأثّر وتبادلٍ في الاتجاهين على وجه العموم ..

ويدخل في هذا السياق أيضًا الكاتب الشاعر الإنجليزي " أوسكار وايلد " Oscar Wilde صاحبُ قصة " سالومي Salomé التي كتبها باللغة الفرنسية . وكذلك ما قدّمه " فولتير Voltaire " الفرنسي في رسائله الإنجليزية.. ويدخل في هذا المجال أيضًا، دراسة الترجمة والكتب المترجمة من لغة إلى لغة، ومدى رواجها ولماذا راجتْ تلك الكتب على وجه الخصوص. وفي هذا، يعود الباحث في الأدب المقارن إلى الكتب الأصلية ويقارن بينها وبين الترجمات المختلفة وبين الترجمات والنسخة الأصلية في لغتها الأصلية.

وكثيرًا ما تتمُّ الاستعانة في الدراسات المقارنة في هذا المجال بما تقدّمه كتب النقد الأدبي والصحف والمجلّات الأدبية المتخصّصة التي ترصد مسارات الكتّاب والشعراء الأجانب وتتابُع بعض أعمالهم وخاصة ذوي الشهرة والتأثير الكبير حيث تُقدّمهم إلى القراء وتترجم بعض آرائهم وأعمالهم وتُعلّقُ عليها وعلى أصحابها وسيرتهم الأدبية ؛ ويدخل في هذا السياق ترجمة بعض الصحف المصرية لآراء " إميلْ زولا " ، كما كانت صحيفة " البلاغ " تقدّم كثيرًا من الكتّاب الروس العالميين مثل: " مكسيم غوكي " صاحب رواية " الأم " المشهورة. وكذلك كانت تفعلُ الكثير من الصحف والمجلّات مثل " المجلّة" و " الآداب " و " الكاتب " وغيرها..

وممّا يدخل في هذا الباب أيضًا ، وفي هذا النوع من الدراسات ، أدبُ الرحلة وما له من أهميّة بالغة ، ومن تأثير كبير وخاصّة في تعريف الشعوب بعضها ببعض، وما ينتجُ عن ذلك في الغالب من تبادل وتأثير وتأثر من خلال ما يكتُبُه كتّاب الرحلة وما يقرأُه القراء في تلك الكتب وما ينجُمُ عن ذلك من تبادل وصلات مختلفة..

2 - **المؤلفون:** إنّ اهتمامنا البالغ بالكتب لا يلغي اهتمامنا في الدراسات المقارنة بالمؤلفين أنفسهم، خصوصا المشاهير منهم الذين كان لهم تأثير كبير ودخلوا مجال العالمية من بابه الواسع، وفي هذا الإطار يهتم الباحث بصلة الكاتب والمؤلف بالبلدان الأخرى ، وكيف عرّفها و قدمها لقرائه في أدبه مثلما فعل " شاتوبريان" وتأثره بإنجلترا، وكيف قدمها في مؤلفاته للقرّاء الفرنسيين . فلا بد من دراسة حياة هذا المؤلف في إنجلترا وما هو صدى الثقافة الإنجليزية في مؤلفاته وتأثيرها عليه. وكذلك يدخل في هذا السياق أيضا تأثر " فولتير" في حياته في انجلترا وما نتج عن ذلك التأثير من قيمة أدبية وفنيّة في أدبه باللغة الفرنسية وكيف كان تقديمه لخُلق أهلها "الإنجليز" ولأدبهم ومدى ما أفاد من ذلك وأية قيمة أدبية وفنية أضافها ذلك التأثير في أدبه وفنّه.

كما يدخل في هذا الباب كذلك، دراسة كاتب مثل " ابن المقفع" الذي نقل إلى العربية روائع لغة الفرس فكان صلة بين الأدب الإيراني الفارسي وبين الأدب الغربي (كليلة ودمنة). وفي هذا المضمار ينبغي للدارس في الأدب المقارن أن يدرس حياة هذا الكاتب المتميز ويتعرف على مشاربه الثقافية وميوله الفارسية ، وما لذلك كلّه من صدى خاصة في جهوده في الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى فمعرفة الكُتّاب وسير حياتهم وميولهم ومشاربهم الثقافية ومصادرها يساعد الباحث في الدراسات المقارنة على تتبع الكثير من التفاصيل المتعلقة بالكتاب والمؤلفين، وصدى كلّ ذلك في أدبهم أو ترجماتهم وتأثيرها وقيمتها الأدبية والفنيّة.

ثانيا: دراسة الأجناس الأدبية :

والمقصود هنا بالأجناس الأدبية هو القوالب الفنيّة الخاصّة بالأنواع والفنون الأدبيّة المختلفة الشعرية منها و النثرية. وهي تفرض بطبيعتها على المؤلف إتباع طريقة معيّنة عند معالجة موضوع من الموضوعات الأدبية وتستخدم هذه الأجناس في تقسيم الإنتاج الأدبي إلى فروع وأنواع وفنون أدبيّة لا يمكن للباحث قي الأدب المقارن الاستغناء عنها، لأنّها تشكّل صلب موضوع الفنّ الأدبي وأساس بنائه الهيكلي الذي يستند إلى قوانين شكلية وفنيّة

تلزم الأديب التقيّد بها؛ ومنها القصّة والملحمة والمسرحية والرواية والقصيدة ومنها المسرحية الشعرية والنثرية والملحمة الشعرية و النثرية والمقامة وأدب الرحلة...

وغالبًا ما تكون الدراسة في الأجناس الأدبية دراسة تاريخية ، فمثلا: كيف نشأت قصّة الرّعاة ومسرحية الرّعاة في الأدب الأوروبي؟ ولماذا راجت هذه الأخيرة في القرن ال 16 في فرنسا ؟ ثم لماذا انتشرت القصّة التاريخية في كلّ أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر..؟ وكيف نشأت القصّة والمسرحية في الأدب العربي الحديث...؟ وما هي الظروف والأسباب التي تحكمّت في تطورهما؟ وكذلك الوقوف عند العوامل التي أثرت في تغير الأنواع الأدبية من شكل إلى شكل، و ازدهار أنواع معيّنة على حساب أنواع أخرى(الملحمة–القصّة–الرواية–المسرحية–القصيدة العمودية – القصيدة الحرّة – القصيدة النثرية). ويدخل في هذا أيضا دراسة الخرافة على لسان الحيوان التي تطوّرت عن "كليلة ودمنة" لعبد الله المقفع الذي نقل هذا الكتاب من الفارسية إلى الأدب العربي، وكذلك تأثر الأدب الفارسي بمقامات بديع الزمان الهمداني (موضوع المقامة)على يد "حميدات" لينقلها إلى الفارسية.

ولا يخفى على أحد أنّ نمط الدراسة في باب الأجناس الأدبيّة هو نمط تاريخي تستند فيه الدراسات وتستمد أصولها من تتبع كلّ نوع من الأنواع الأدبية وتطوّره في لغتين أو أكثر، والعوامل المؤثرة فيه هنا وهناك. و هذه الدراسات على الرغم من أنّها ذات طابع تاريخي مقارن إلاّ أنّ قيمتها كبيرة في تتبع نمو وتطوّر الأجناس الأدبية وبخاصة في الأدب العربي الذي استمد أكثر الأجناس الأدبية من الآداب الأوروبية وابتعد بذلك في الغالب عن أصوله ومصادره العربية من الأدب العربي القديم..(الشعر الحر، القصّة، الرواية، الملحمة، المسرحية....إلخ

وفي كلّ الدراسات التي تتعلّق بالأجناس الأدبية فإنّ على الباحث المقارن أن يراعيَ ما يلي:

1 -أن يحدّد الجنس الأدبي الذي يدرسه، ويكون ذلك أسهل كلّما كان الجنس الأدبي ذا قواعد واضحة(القصّة التاريخية، الرّواية، المسرحية الكلاسيكية، المسرحية الرومانتيكية....إلخ)

2 -أنْ يقدم الباحث الأدّلة على تأثر الكاتب أو الكتاب بالجنس الأدبي موضوع الدراسة المقارنة بين أدبين أو أكثر.. وذلك من خلال التصريحات (كما فعل فيكتور هوجو الذي صرّح بمحاكاة "شكسبير" أو عن طريق ما كُتب عن الموضوع أو عن طريق الصلات التاريخية الثابتة. وقد يصعب ذلك كما في محاكاة الشاعر"ألفرد دي فيني" للكاتب الإنجليزي "و لتر سكوت w .scoot وكذلك كما هو الحال بالنسبة لمحاكاة أحمد شوقي لشكسبير و"دريدن" الإنجليزي في مسرحية "مصرع كليوباترا".

3 –أنْ يحدد الدارس مدى تأثر الكاتب بالجنس الأدبي موضوع الدراسة وعوامل ذلك التأثر وهل هو خاضع لمذهب أدبي معيّن، أم أنّه كان حرّا في اختياره. وإلى أيّ مدى كان تصرّفه في قواعد المدرسة الأدبية أو في ما أخذه عن غيره وكيف كان اجتهاده الخاص في ما كان متأثرا به. وكيف كان ذلك التأثر.. وكلّ هذا يستلزم الوقوف عند حياة الكاتب أو الشاعر ودراستها والوقوف عند بعض محطاتها الرئيسية المؤثرة في تكوينه الثقافي والفكري والأدبي. وكذلك تحليل آثاره الأدبية الإبداعية تحليلا دقيقا، والوقوف على أوجه الأصالة في أدبه وفنّه.

ثالثا: دراسة الموضوعات الأدبية:

وهذا النوع من الموضوعات يسميه "الألمان"(تاريخ الموضوعات)، ويدعى لدى الفرنسيين (علم الموضوعات) أو الموضوعاتية thématologie وتبرز أهمية الموضوعات في معرفة خصائص الشعوب ونفسي اتها والبحث هنا يتعلّق بالموضوع وليس بالشكل لنوع أدبي ما. البحث في الموضوعات المشتركة بين الآداب القومية وكيفية انتقالها من أدب إلى آخر وما يطرأ عليها من تغير في الفكرة أو الدلالة. فقد تكون الفكرة غالبا واحدة ولكن يختلف تناولها من أدب إلى آخر.. وفي هذا الباب نلاحظ اهتمام الدراسات المقارنة بهذا النوع وهذا النمط من الدراسة وذلك كمثل دراسة شخصية"فاوست" Faust في الأدب الألماني و الفرنسي وهي الشخصية التي سكنت الأساطير الألمانية، وتعني أنّ ساحرا أو منجّما باع نفسه للشيطان لقاء حصوله على الشباب و الحياة و المعرفة. ولقد تمّ توظيف هذه الشخصية بطرق رمزية مختلفة ممّا يجعلها موضوعا للدراسة المقارنة بين الآداب القومية خاصة بين الأدبيين الألماني و الفرنسي؛ وذلك من خلال اتخاذ هذه الشخصية كنموذج بشرى بين الأدبين الألماني والفرنسي، حيث كان هذا الموضوع في الأدب الألماني ثم انتقل إلى الأدب الفرنسي . ومثلها أيضا شخصية عنترة بن شداد، وشخصية حاتم الطائي وغيرهما في الأدب العربي، وليلى العامرية والمجنون وشخصية جحا.

ويدخل في هذا الباب من الدراسات أيضا شخصية " دون جوان" Don Juan وهي شخصية خيالية إسبانية أبتدعها الكاتب الإسباني المسرحي " دي مولينا" في مسرحيته الشهيرة "ساحر إشبيلية" (خدّاع إشبيلية) وهي شخصية يمكن دراستها بين الأدبيين الإسباني والفرنسي وكيف أنتقل هذا الموضوع إلى الأدب الفرنسي الذي تأثر به. كما يمكن دراسة شخصية " كليوباترا" ملكة مصر رمز الجمال والسحر وكيف انتقل موضوع كليوباترا بين الأدب الإنجليزي والفرنسي والعربي.

رابعًا: دراسة تأثير كاتب ما في أدب أمّة أخرى:

تقوم الدراسة المقارنة في هذه الحالة على دراسة مدى تأثير أديب ما في أدب أمّة أخرى وما هي طبيعة هذا التأثير، وكيف تجلّى في غير لغته الأصلية.ولا شكّ أنّ الأديب الذي يؤثّر في آداب أخرى يكون قد تجاوز إبداعه الأدبي نطاق أدبه القومي إلى حدود العالمية ،فيُؤثّر في الآداب الأخرى بأعماله الأدبية والفنية ، ويؤثّر هو كأديب أيضا في الأدباء من أمثاله في الآداب القومية الأخرى ، ممّا يجعل إبداعاتهم متأثّرة به وبأعماله وإبداعاته .وذاك مجال خصبٌ للدراسات الأدبية المقارنة.. ولا بد في هذه الحالة من معرفة الأسس الآتية التي تقوم عليها الدراسة المقارنة في مثل هذه الموضوعات وهي على النحو الآتي:

1 ضرورة تحديد نقطة الانطلاق في التأثير من مؤلفات كاتب ما ، أو كتاب واحد من بين مؤلفاته ، أومن شخصية ذلك الكاتب باعتباره جزءا لا يتجزأ من مؤلفاته وآثاره الأدبية.. ومن أمثلة ذلك: تأثير مسرحيات شكسبير ، أو تأثير " هملتْ " وحدها .. وتأثير الشاعر الألماني " يوهان غوته" وكتابه " الديوان الشرقي للمؤلف الغربي " الذي أثّر به في " كارليلْ " الإنجليزي وتأثّره ثمّ تأثيره في الأدب العربي..ومن ذلك أيضا الشاعر الفرنسي " لافونتينْ " La Fontaine " وقصصه على لسان الحيوان " Les Fables التي أثّر بها في الأدب العربي وفي أحمد شوقي تحديدا بعد أن كان " لافونتينْ " نفسه قد تأثّر في البداية بالأدب العربي من خلال " كليلة ودمنة " لعبد الله بن المقفّع .. وكذلك تأثير شكسبير من خلال مسرحية " أنطونيو وكليوباترا "..

2 ضرورة تحديد الوسط المتأثّر ، بلدًا كان أم مجموعة مؤلّفين أو مؤلّفًا واحدًا .ومن أمثلة ذلك تأثير الكاتب الفرنسي " جي دي مو بسان " في القصة القصيرة العربية في القرن العشرين، أو في محمود تيمور فقط . أو تأثير " وُلتر سكوتْ " في جرجي زيدان " في مجال الرواية التاريخية..

3 الوقوف عند مكانة الأديب ودوره المتميّز وتأثير شخصيّته وأدبه وترجمة أعماله إلى لغات مختلفة .. ومن أمثلة ذلك نذكر أدب الوجودية وما كان له من تأثير عميق مثل أدب " جان بول سارتر " وتأثير شخصيته وأدبه مثل : الوجود والعدم ، سجناء ألتونا ، مسرحية الذباب ، الكلمات ، ....إلخ. وكذلك " سيمون دو بوفوار " : "الجنس الثاني " . و " ألبير كامي " وكتبه: الغريب ، الطاعون ، سيزيف.

والإنسان المتمرّد.. وكذلكْ " فريدريكْ نيتشه " : أصل الأخلاق وفصلها، و " هكذا تكلّم زرادوشتْ " .. وكذلك تأثير الماركسية في كثير من المؤلفات الأدبية والكتّاب هنا وهناك وفي كلّ مكان..

خامسًا : دراسة مصادر الكاتب :

ونعني بمصادر الكاتب هنا، المنابع الأجنبية التي استوحى منها إنتاجه الأدبي من لغة أو لغات أخرى. وتكون مظاهر تأثّر الكاتب في هذه الحالة متعددة النواحي .. من ذلك تأثّره بعادات البلدان الأخرى وحضاراتها ونمط التفكير ..وقد يكون التأثّر عن طريق القراءات المختلفة في لغات أخرى وآداب أمم مختلفة. و يجب على الباحث تحديد ذلك وتحديد مظاهر التأثّر، مع ضرورة التمييز بين ما هو تأثّر وما هو مجرّد توارد الأفكار وتشابهها أحيانًا. و يدخل في هذا النطاق كلّ ما هو مصادر التأثير والتأثّر من كتب ومؤلفات ومصاحبة ورسائل ورحلات وغيرها..

سادسًا : دراسة التيارات الفكرية :

وتسمّى أحيانًا بحركة الأفكار، وهي تشمل عادة المدارس الأدبية والحركات الفكرية والتيارات التي تسود عصرًا ما، ويكون لها تأثير قوي في الأدب والفن، وتمتدّ إشعاعاتها كمؤثّرات يستقي منها الأدباء أدبهم وتوجّهاتهم.وتكون هذه الحركات والمدارس والفلسفات مصدرًا لكثير من النظريات الأدبية التي يتأثّر بها في الغالب الأدباء في مختلف الآداب القومية بحيث تنتشر وتتوسع دائرة تأثيرها وتنتقل بين الآداب وبين الأدباء في شكل تبادل للأفكار وانتشار للنظريات والتوجهات الفنية والأدبية ؛ ومن ذلك ما كان للمدارس الأدبية من انتقال وتأثير في آداب الشعوب من كلاسيكية إلى رومانسية إلى واقعية اشتراكية إلى طبيعية وما إلى ذلك..ماركسية – ليبرالية – تروتسكية – فوضوية- سريالية...إلخ .

سابعًا: دراسة بلد ما كما يصوّره أدب أمة أخرى:

ويندرجُ في هذا ما يُبديه شعبٌ ما من آراء ومواقف وأحكام على شعوب أخرى ممّا ينعكس في أدب الأمة في علاقتها بالشعوب والأمم الأخرى. ويتجلّى هذا النوع من الموضوعات في أدب الرحلات والقصص والمسرحيات وما بها من شخصيات وألوان وأوصاف مأخوذة عن بلدان وأمم وشعوب أخرى. ويشمل هذا المجال في الأدب المقارن نوعين من الدراسة :

1 دراسة بلد ما كما يصوّره أدب آخر: مثالُ ذلك صورة إنجلترا في الأدب الفرنسي في ق19 م . وكذلك صورة اسبانيا في الأدب العربي و خاصة بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامي .(92 هـ - 711 هـ) / (897م – 1492م).

2 دراسة بلد كما يصوّره مؤلف ما من أمة أخرى: ويندرجُ في هذا السياق صورة اسبانيا في شعر أحمد شوقي، وكذا صورة مصر في مؤلفات " جيرا ر دي نرفال " G . de Nerval " .كما يدخل في هذا الباب أيضا كلّ المؤلفات الأدبية التي تصوّر البلدان والأمصار والشعوب وعلى رأسها كتب الرحلات وأدب الرحلة على وجه الخصوص..

- من مؤلفات جيرا ر دي نرفال G . de Nerval في هذا الباب:

- Scène de la vie orientale (1846 – 1847)
- Voyage en orient. (1851).